

طوق النجاة الأول

تهيئة المجتمع وتأهيله

* من سبب صنع الحضارة (نظرة على واقعنا الاجتماعي)

* منظومة القيم المؤهلة للحضارة

**إذا أذبت الملم في الماء فلا تتعجب أن الناتج ليس عسلاً ، فالنتائج لا
تصنعها أمانينا ولكن تصنعها أفعالنا .**

من سيصنع الحضارة ؟ نظرة على واقعنا الاجتماعي

إن لكل مجتمع جسداً وروحاً ، فأما الجسد فهو يتمثل في أفراد المجتمع ، وأما الروح فهي تتمثل في منظومة القيم الساكنة في هؤلاء الأفراد ، ومنظومة القيم هذه لا تختلف في جملة مكوناتها من مجتمع لآخر ، وإنما الذي يختلف من مجتمع لآخر ويميز مجتمعا عن آخر هو ترتيب مفردات هذه القيم داخل تلك المنظومة ، أى موقع كل قيمة من باقى القيم أى مكانة كل قيمة مقارنة بغيرها من القيم في وجدان وأذهان أفراد المجتمع أو بصورة أدق في وجدان وأذهان الغالبية العديدة من أفراد المجتمع .

إن منظومة القيم هي أخطر مما قد يظن البعض ، فهي التى تحكم أفعال المجتمع وردود أفعاله تجاه الأحداث والمتغيرات المختلفة ، وهى التى تحدد أولويات هذا المجتمع وتوجهاته وهى التى تمنحنا كل ما نحتاجه من إجابات على ما قد يدور في أذهاننا من تساؤلات عن واقع هذا المجتمع بكل ملامحه ، وهى بالتالى تعطينا إمكانية استنباط مستقبل هذا المجتمع بدرجة كبيرة من الدقة باعتبار أن غدنا الآتى هو الإبن الشرعى ليومنا الآتى ، وهو تفسير لايعنى إقراراً بعلم الغيب ولا اعتقاداً في التنجيم ولا قطعاً بالنتائج ، وإنما يعنى فقط أن النتائج تبنى على الأسباب وأن هذه الأسباب والنتائج ما هى إلا معادلات منطقية يخضع لها فكر البشر ولكنها فى الأساس تخضع لإرادة الله ومشئته فهو خالق البشر والأسباب والنتائج وهو وحده القادر على إبطال المنطق وتجاوزه ، فحسبه من طلاقة القدرة كن فيكون ، ولكن الله لا يتجاوز الأسباب والمنطق من أجل أمة لها واقع أمتنا التى أمعنت وتفتنت فى مخالفة خالقها قولاً وفعلاً .

إذن فلا مجال أمامنا سوى أن نفكر بالمنطق ونأخذ بالأسباب والمقومات المادية لتبين أن مستقبل أى مجتمع يمكن استنباطه من حاضر هذا المجتمع ، لذا فإن صانعى السياسات

والإستراتيجيات ومتخذى القرارات لابد أن يسترشدوا بمنظومة القيم السائدة فى المجتمع فى سبيلهم لوضع سياسات الحاضر والمستقبل ، وإلا فإنهم سيكونون كمن أذاب الملح فى الماء وانتظر عسلاً ، أى أن هؤلاء المسؤولين ليس أمامهم سوى أحد بديلين ، أولهما أن تظل أهدافهم المستقبلية هى العسل الذى يتشددون به وبخلاياه ونحله وهنا يتحتم عليهم تغيير الواقع وملء الكوب بماء ممزوج بالسكر ، وثانى البديلين هو الإبقاء على الواقع كما هو وكما أراه وكما يراه الجميع مجرد ماء ممزوج بالملح ، وهنا يتحتم تغيير أهدافهم المستقبلية لتكون شربة ملح بدلاً من العسل – وهى فى أسوأ الحالات لن تخلو من المنافع الطبية – أما أن يظل الواقع ماء وملح وتظل أهداف المستقبل هى العسل ، فهذا هو الخلل والتخبط فى أقصى درجاته والشيزوفرينيا فى أسوأ حالاتها والجهل فى أحلك دركاته (اللهم الطف بنا فى الدنيا والآخرة) .

مقدمة طويلة لابد منها كى ننتقل بعدها إلى المجتمع المصرى – كمثال على أغلب المجتمعات العربية والإسلامية – لنسلط الأضواء على قيمه السائدة بين جميع فئاته السنية وطبقاته الاجتماعية بصفة عامة وبخاصة بين فئة الشباب الكائنة بين بدايات سن المراهقة وصولاً إلى سن الخامسة والثلاثين ، باعتبارها الفئة التى تمثل مستقبل مصر القريب – إن لم تحتكره قيادات الحاضر التى هى قيادات الماضى والتى ضيعت على جيل كامل حق المشاركة فى تحمل المسئولية – وباعتبارها أكثر الفئات تعداداً ، فما هى منظومة القيم السائدة بين هؤلاء الشباب والتى تحدد أفعالهم وردود أفعالهم وأولوياتهم وتوجهاتهم ؟ وهل هذه المنظومة التى تسرى فى عقول هؤلاء الشباب ووجدانهم هى بمثابة حتميات لا يمكن تعديلها ؟ أم أنها مجرد منتج من صنع إرادتنا وبالتالى فإننا قادرون على تعديلها ؟

نبدأ أولاً بتركيز الأضواء على منظومة القيم السائدة بين فئة الشباب من خلال تناول واقعهم الذى نراه جميعاً ذا دلالات قاطعة لا تقبل الجدل أو الشك أو المراوغة تفيد بأن هؤلاء الشباب قد صاروا نسخاً ومسحاً وظلاً لكل ما فى الحضارات الأخرى من سلبيات وهى كلها مظاهر تجعلنا نؤكد أنهم أبعد ما يكون عن مؤهلات صناع الحضارات ، بل قد تجعلنا نؤكد باطمئنان أنهم متشربون بمؤهلات هادى الحضارات ، وحيث إننا أمة لازالت تحبو على بدايات طريق إقامة حضارة جادة وباقية

- أو هكذا ندعى ونتمنى - فلا بد أن نسأل ونسأل :

* هل حضارتنا المنشودة سيصنعها الشباب والشابات الذين وصل بهم التبجح على الفضائل والإنكار لقيم المجتمع والانفصام عن معتقداته إلى الحد الذى جعلنا نرى مانراه من ثنائيات وتجمعات عابثة ومستتهرة ومنحلة ورخيصة فى مختلف الأماكن العامة والطرق وأعلى الكبارى وأسفلها وعلى امتداد الكورنيش وداخل السيارات وفى الحدائق والملاهى بل والمؤسسات التعليمية وما خفى كان أعظم (رجاء النظر فى صفحات الحوادث كمؤشر محدود جداً عن شبكات الآداب وتجمعات الرذيلة) .

وأعود لأسأل هل هؤلاء هم أمل مصر فى صنع حضارتها ؟ وماهى أدواتهم فى هذه الصناعة ؟ أهى الجنس الرخيص أم هى الإقبال على مغيبات العقل والضمير ، أم هى عقوقهم لآبائهم وأمهاتهم ، أم هى تبجحهم على أساتذتهم ، أم هى اعتناقهم لقيم المادة على حساب قيم السمو ، أم هى التعالى على القانون واحتقاره على خلفية ((إنت ما تعرفش أنا مين وابن مين)) !!

ثم أين الحكومة بجميع مؤسساتها ومسئولياتها وسلطاتها وأجهزتها من هذا الواقع ؟ وهل هى راضية عن هذا الواقع أم أنها رافضة له ؟ وإن كانت رافضة له فأين دورها غير الملموس وغير المؤثر فى محاربة هذه الظواهر التى استفحلت وأساءت لسمعة مصر والمصريين بالداخل والخارج ؟ أم أن الحكومة الراغبة فى تحديث مصر وإقامة الحضارة لا تدرك أنها مطالبة ومسئولة - إن لم يكن فى الدنيا فحتمًا فى الآخرة - عن تقصيرها فى إبراز القدوة الصالحة لهؤلاء الشباب بدلاً من تركهم فريسة لأرباب الجنس والسقوط والتبجح من أمثلة فتيان وفتيات الفيديو سليب والراقصات ومطربات البكىنى وأشباههن ممن يدعين لأنفسهن رسالة واللائى أجمعن على أن مصر وشعبها هما القاعدة المثلى لانطلاقهم إلى عالم الشهرة والثراء والنجومية ، مصر التى يوجد بها ثلاثة ملايين عاطل لا يجدون فرصة للعمل ، مصر التى تعاني أزمات اقتصادية وتعليمية وإسكانية جعلت ما يقرب من خمسة ملايين مصرى يعيشون تحت خط الجوع وهو خط يقع فى المساحة التالية لخط الفقر فى اتجاه العدم ، ثم لماذا تجاهل الحكومة لمافيات صناعة وتلميع أمثال هؤلاء والإعلاء من شأنهم والمبالغة فى احترامهم ؟ ثم ماذا تنتظر الحكومة من شباب

مصر الراغبة فى الحضارة وهم يرون هؤلاء الهوامش وقد صاروا أسياداً ورموزاً فى مجتمع عربى مسلم ؟ وأى قيم تنتظر الحكومة أن يعتنقها الشباب وهم يرون هذه الساقطة أو تلك وقد نالت جائزة رسمية عن عمل تعرض فيه جسدها ونال منه من نال حتى رأى منها الناس ما يراه الزوج من زوجته ؟ وأى قيم تنتظر الحكومة أن يعتنقها الشباب وهم يرون الكثيرين من رجال الدولة وقد تألقوا وتألقوا لحضور حفل راقص دونما خجل من أوضاعهم السياسية ومراكزهم القيادية الرفيعة .

أيها الناس اتقوا الله فى شباب مصر وشبابها فهم جميعاً أبناءكم وهم أملنا فى صنع الحضارة ، وليست كل الحضارات باقية وقوية ولها فى كتب التاريخ مكان ومكانة ، وثمة فروق جوهرية بين حضارة محمد على وحضارة شارع محمد على !!

* هل حضارتنا المنشودة سيصنعها أبناءنا المشتتون التائهون فى دهايز ولوغاريتمات العملية التعليمية التى قد يتوهم البعض أننا سنتوهم أنها سياسة حقيقية للتعليم ، وأن لها خطوات ومراحل وأهداف تتواءم وأهداف التحديث الذى نأمله والحضارة التى نشدق بها ، هل يظن أحد أننا سنتوهم ذلك برغم كل ما تحويه هذه العملية فى طياتها من معاول هدم لأحلام وطموحات وقدرات أبنائنا ، وبكل ما تثمره لنا من سلبيات سلوكية وأخلاقية تتمثل فى تفشى ظاهرة الزواج العرفى وغيره من صور زواج الزنى بين الطلبة والطالبات فى المرحلة الجامعية بل وفى المرحلة الثانوية بل وفى المرحلة الإعدادية التى هى البداية الأولى لسن المراهقة بكل ما فيها من مخاطر تجاهله المسئولون وتجاهلها أولياء الأمور وتجاهلها القائمون على التعليم متشدقين بشعارات الزمالة الوهمية التى أفرزت على صفحات الحوادث العديد من حالات الحمل .. وأكرر العديد من حالات الحمل فى أرحام الطالبات من زملائهم فى مختلف المراحل التعليمية ، وأنا شخصياً على يقين قاطع بأن ما ينشر هو نقطة من بحر الحقيقة التى لا يعلمها الشعب ولكنها معلومة كل العلم للمسئولين الكبار الذين لو كانت فيهم بقية من ضمير ينبض وإرادة تنهض لزلزلوا الأرض زلزلاً ولكنهم باعوا أنفسهم وخانوا ضمائرهم وغيبوا إرادتهم ليشتروا عرض الدنيا وما هى إلا أيام أو أسابيع أو شهور أو أعوام طالت أم

قصر ت سققفون بعدها بين ىدى الله ولنا معهم حينها وقفة قصاص لا نملكها فى الءاءة الدنيا التى أءءلوا أبناءنا ءلالها فى مسلسل هابط تنتهى ءلقاته الهابطة - التى ستنالها بشىء من الإفاضة مستقبلاً - بصدمة التءرء والءصول على المؤهلات العليا ، لىءأ كل هؤلاء فى إءراك الملاءء الءقئقة للواقع ، ءئ ءمع الأءلام مئاة ومباة فقط إذا ما توافر الثمن ، والثن غالباً ما يكون فى إءءى صور الوساطات والمءسوءىات ، فالءى يستء بظهره إلى أءء الوزراء أو أءء كبار رجال المال والأعمال أو إءءى قمم الرقص هو مؤهل تمامًا كى يىءأ ءئاته الوظئفة بما لا تنتهى إليه الءاءة الوظئفة للغالبة العظمى من أبناء الشعب لالءب اقترفوه سوى أن عائلاتهم أو معارفهم لئس منهم وزيراً أو رجل أعمال أو راقصة .

* هل ءضارتنا المنشوءة ستصنعها أءبال الضعف والوهن الءئ تنفسوا هواً ملوثاً وشربوا ماءً ملوثاً وأكلوا طعاماً ملوثاً وأءاط بهم التلوث السمعى والبصرى والإءباطات النفسفة من كل ءانب ؟ ءئ صرنا نسمع ونرى إءصائات رسمفة مفرعة ، إن ءلت فإنما ءءل قئئناً على أن البعض لا ىرئ لمصر ءاضراً ولا ءضارة وأن هذا البعض ىصر على إىءاء مصر فى أعلى مائلك ألا وهم شبابها ونشئها وأن هذا البعض لءفه من الصلاءفاء ما يمكنه من آءاء مهمته فى غفلة من الءمع ، وإلا فما معنى ما ىءاع علئنا تلفزفونفاً ءضمن ءملة التبرع لبناء مستشفى الأورام وبما ففئء أن مصر بها نصف ملفون طفل مصابون بالأورام ولا فءءون علاءاً ، وهل هذا من باب الاستءءاء أم أن هذا هو الواقع ؟ نصف ملفون طفل مصرى مصابون بالأورام ولا فءءون علاءاً - ءسبنا الله ونعم الوكفل - إلى هذه الءرءة صارت الصورة مرعبة ؟ وبماذا توصف الصورة إذا ماكان هناك نصف ملفون آخر مصابون بالأورام ولكنهم فعا للءون ؟ وبماذا توصف الصورة إذا ماكان هناك نصف ملفون آخر مصابون بالأورام ولكنهم ءارء الإءصائفة ؟ وكف سئءو لنا الصورة إذا ما أضفنا هؤلاء وهؤلاء مئاء الآلاف من الأطفال المصابفن بأمرض الكبء الوباءفة وأمراض الفشل الكلوى وأمراض السكر والقلب والمصابفن بالإعاقات البءئفة والذهئفة وهم فلفون وفق

آخر الإحصاءات ١٠٪ من إجمالي السكان – أرجو ملاحظة أنني لا أقول عشر حالات أو مائة أو ألف أو حتى مائة ألف إنها ١٠٪ – أى ما يقرب من سبعة ملايين معاق منهم مليونى معاق ذهنيًا !! (إننى لازلت مصرًا على أن البعض يهدف إلى اغتيال الأمة عبر جريمة وفق معطيات الواقع ستقيد غالبًا ضد مجهول) !

ثم كيف ستبدو الصورة لنا إذا ما أضفنا لجميع هؤلاء ماسبق إعلانه عن وجود مليونى طفل من أبناء الشوارع (لاحظ أن كل منهم يعتبر مشروع مجرم !) ؟ وأخيرًا كيف ستكون الصورة إذا أضفنا إليها المصابين بالأمراض المختلفة من الشباب في المراحل السنية الأكبر ؟ لاشك أنها صورة مرعبة إذ أننا نقف فيها على حافة الهاوية مدفوعين من قوة هائلة لا تعرف للشراء والنجومية وسيلة سوى تدمير هذا الشعب الذى يتنفس سموم الصناعة ويأكل سموم الزراعة ويشرب سمومهما معًا لكى يموت بعيدًا عن مواد القانون وقبضته العاجزة عن مواجهة ديناصورات الفساد والإفساد !!

الإخوة عشاق الوطن .. على الرغم من كل هذا الظلام الذى يحيط بواقع شبابنا وواقعنا جميعًا وينذرنا بمستقبل أحلك ظلمة فإننى أؤكد أنها ظلمة وظلم صنعناه بأيدينا ونحن قادرون على تبديده وتبديله إذا خلصت النوايا فثمة شعاع يحمل إلينا الأمل ، ولكنه أمل قائم على العمل لا على الأمنيات ، فإذا كنا جادين فى صناعة حضارة قوية وباقية فلا مناص من إعادة ترتيب منظومة القيم لخلق واقع آخر يحمل جينات الحق والخير والجمال لينقلها بالوراثة إلى مستقبل نستحق فيه أن نكون خير أمة أخرجت للناس .

إذا خُذنا فى السراب بعض الوقت ، فلا يجب أن نخدم كل الوقت، لأن إصرارنا على الوصول إليه والارتواء منه لا يعنى إلا إصرارنا على الموت ظمًا.

منظومة القيم المؤهلة للحضارة

الإخوة الأحباب عشاق الوطن ..نحن الآن بصدد النصف الثانى من طوق النجاة الأول الذى أنهينا نصفه الأول هادفين بكل الصدق إلى توصيف الملامح المميزة لواقع مجتمعنا المصرى بصفة عامة وبصفة خاصة واقع فئة الشباب التى باتت تعتنق قيمًا هشة ورخيصة هى فى حقيقتها مجموعة من فضلات ونفايات الحضارات الأخرى .

وكنت قد أشرت إلى أن هذه القيم البالية لا تصلح سوى لإقامة حضارة من مثيلات حضارة شارع محمد على ، ولو أن حضارة هذا الشارع بكل قيمها الحقيرة لم تنجح فى جعل هوامش المجتمع أسيادًا ورموزًا ونجومًا كما هدفت ونجحت فى ذلك الأجيال التى تلتها منذ الخمسينات فى القرن الماضى وإلى يومنا هذا ، إذ كان المجتمع قبل هذه الحقبة دقيقًا إلى حد بعيد فى إعطاء كل فئة ما يناسبها من مكانة ، فلم نكن نسمع إلا فى حالات نادرة أن أحد العاملين فى هذه المهن لهم صداقات مع رموز المجتمع من السياسيين والمفكرين والرأسماليين الوطنيين كما هو حادث الآن بل إن هؤلاء الرموز كان إذا زل أحدهم أو ابتلى بداء التدنى والانحطاط وغلبته نفسه فأقام علاقة مع أحد أو إحدى هؤلاء الهوامش إذا به يجد ويجتهد فى سترها عن مدارك الشعب باعتبارها وصمة عار ستلحق بشخصه وسقطه ستنال من مكانته وتهدد مستقبله ، كما لم نكن نسمع إلا فى حالات نادرة أن هؤلاء الهوامش بإمكانهم تحقيق الثروات الطائلة خلال فترات زمنية محدودة متجاوزين طموحات واستحقاقات جميع الشرفاء من العلماء والعاملين والمفكرين الذين هم البنية الحقيقية للوطن الذى يهدمه هؤلاء ، كما لم يكن فى وسع هؤلاء الهوامش أن يتجرأوا على

مجرد التفكير في المطالبة بإنشاء روابط أو نقابات لتعبر عن طموحاتهم وتحمى ممارساتهم ، حيث كان هؤلاء الهوامش على الرغم من وضاعتهم الأخلاقية يدركون تمام الإدراك — كما كان المجتمع يدرك — أن لهم حدود لا يمكن تجاوزها وأنهم مجرد أدوات للتسلية الرخيصة ووسائل للمتعة الحقيرة فقط ، لذا فقد كانت طموحاتهم لا تتعدى مجرد البقاء على وجه الحياة وهى نفس الطموحات التى صار الشرفاء يتطلعون إليها فى مجتمع صار أسياده ورموزه ونجومه من الراقصات والمتبجحات واللاعبين وأصحاب رءوس الأموال اللقيطة — التى تحتاج تشريعاً بحرقها بعد غسلها — ومدعى الفن من الرجال والنساء الذين وصل بهم الشطط العقلى والغيوبة الأخلاقية إلى التشديق بأنهم أصحاب رسالة ، ولست أرى فى الغالبية العظمى من الأعمال الفنية سوى مجموعة من الدروس الخصوصية التى تعرض المجتمع وتدعوه إلى التخلّى عن قيمه وعاداته السليمة واعتناق كل صور السقوط والانحطاط ، ومن موجبات السخرية أن تجد رجلاً — أو مخلوق على صورة رجل — يقوم بدور البطولة أمام زوجته التى تؤدى دور امرأة ساقطة تعبت بجسدها أيادى المشاركين فى العمل على مرأى ومسمع من زوجها ومن المجتمع كله ورغم ذلك فلا يجب أن نندهش إذا تم استضافة النجمين فى أحد البرامج لتهنئتهما على نجاح هذا العمل الرائع وعلى ما حققه من إيرادات وسؤالهما فى لهفة عن السر فى هذا النجاح ليرد الزوج الفنان بادئاً بحمد الله وناسباً هذا النجاح لفضل الله وللجهد الصادق والآداء المتقن من جميع المشاركين فى العمل ، أى أن هذا المخلوق يعتبر تعزى زوجته نجاحاً ويعتبر العابثين بجسدها أهل فضل ونعتبره نحن السفهاء نجماً وقدوتنا ومثلنا الأعلى فى زمان حجبت فيه النجوم وشحت فيه القدوة وتوارت فيه المثل .

وإلى هنا إخوة الوطن فقد وصلت الرسالة ، وهى رسالة ذات قيم ولكنها لا تصلح سوى لإقامة حضارة يمكن استخراج شهادة وفاتها فى نفس يوم مولدها ، باعتبارها حضارات لا تولد إلا ميتة أو قتيلة بفعل فيروسات الفساد الكامنة فيها، نعم هى حضارات ميتة لا تليق إلا بأمة سخرت رجالها وإمكاناتها وإعلامها ودبلوماسيتها للسعى المحموم نحو مايدعى البعض أنه قضية مصر والمصريين ، إنها مأساة اللهث وراء تنظيم

كأس العالم لكرة القدم عام ٢٠١٠ ، هذا التنظيم الذى تقدر ميزانية الإعداد - فقط الإعداد- لمقوماته بحوالى مليارى دولار أى حوالى أربعة عشر مليار جنيه مصرى معوم أى مايزيد عن نصف الميزانية السنوية التى تخصص لتعليم واحد وعشرين مليون مصرى فى مختلف مراحل التعليم أى ما يقدر بضعف ميزانية الرعاية الصحية لشعب مصر الموبوء ، هذا التنظيم الذى من أجله شكلت لجان بعضها برئاسة رئيس البرلمان وبعضها برئاسة رئيس الوزراء لكى يسافروا فى مأموريات عمل لإقناع المسؤولين عن هذه المسابقات بلهفة مصر وأحقيتها بهذا الحلم الوطنى ، هذا التنظيم الذى سيجعلنا ننسى همومنا ونتفرغ لمشاهدة المعارك الرياضية والقادة الرياضيين والانتصارات الرياضية التى يروق لنا أن نتغنى عقب كل منها بالنشيد الوطنى القائل : المصريين أهمه .. حيوية وعزم وهمه .. المصريين أهمه .. فى الدنيا أول أمة .. جيل بعد جيل متقدمين .. المصريين المصريين المصريين !!! ألم أقل أنها مأساة .

لقد اختلت قيم الأجيال الشابة كنتيجة حتمية للإلحاح الإعلامى على قيم التسبب - ولا أقول التحرر - وعلى بروزة رءوس التبجح والعزى وأتباعهم وصناعهم إلى الدرجة التى تجرأوا فيها على إنشاء مدارس لتعليم الرقص ، ولا أدرى من سيعلم من بعد أن صار شبابنا - الذكور منهم قبل الإناث - محترفى رقص وأفضل من راقصات شارع محمد على ، لقد اختلت القيم لأن المجتمع بكل سلطاته بما فيها سلطان الأسرة رضخت لطوفان السقوط والساقطات واعتبرتها أمراً واقعاً لا مفر منه ولا قدرة على تغييره ، ومن أسف أن تجلس إحدى زاعمات أو زاعمى الحكمة والخبرة أمام ميكروفونات الإذاعة والتلفزيون ليرسخوا فى نفوس شبابنا كل قيم التبجح والتطاول والندية مع الكبار حينما يتوجهون للآباء والأمهات بالنصيحة فى كيفية تربية أبنائهم وامتصاص حماسهم بقبول الكثير من أوضاعهم والاستماع الدائم بلا ملل إليهم !! ثم تتوالى النصائح لتصل إلى توجيه اللوم للآباء لأنهم يصرون على تربية أبنائهم وفق ماتربوا هم عليه وهذا يخالف الصواب إذ أن هذا جيل آخر !!!!

خالص الشكر لكم ولكن أيها الحكماء الخبراء ، فقد نهتمونا لما غفلناه وعلمتمونا

ما جهلناه ، نعم أبناءنا جيل آخر جيل تربي على أفكاركم المتحيزة حتى صارت البنات يحملن من زملائهن في مراحل التعليم المختلفة وحتى صرنا نرى في الشوارع والأماكن العامة الشباب وهم يعبثون بأجساد الفتيات دونها حياء أو استحياء ، وصلتنا رسالتكم التربوية ولكنني أدعو الشباب ألا يلتفتوا إليها بل وأن يبصقوا عليها وأن يفيقوا من غفلتهم وأن يعلموا أننا لا نريدهم نسخة منا كما تزعمون أيها الجهلاء ، لسبب بسيط وهو أننا لم نكن على صواب لا نحن ولا آبائنا ولا أجدادنا ، لذا فنحن نريدهم أن يكونوا بداية جديدة لمصر وللأمة كلها ، نريدهم أن يعلموا ويعملوا بها لم يعلمه هؤلاء الجهلة ولم يعملوا به ، نريد منكم أيها الشباب أن تعلموا أن للتربية شقين فأما أولهما فهو منظومة القيم التي تحكم تصرفات الإنسان وهو شق ثابت ومن الضروري أن يظل ثابتاً وليس رجعية ولا تخلفاً أن يظل ثابتاً ، وإنما الذي ينبغي أن يتغير وأن يتطور وألا يتوقف عن الحركة فهو الشق الثاني الذي يمثل الجانب العلمي بكل مناحيه وبكل تطبيقاته النافعة . لقد حكى لي أحد الشباب المحترمين — وهم قلة في هذا الزمن الرديء — ويعمل في إحدى الأجهزة الرقابية المهمة أن له زميلة تكبره سنًا حيث تجاوزت الأربعين — أي أنها ليست من جيل الشباب — سألها يومًا عن أمنيته في الحياة فقالت له أن أمنيته هي أن تصافح المطرب فلان.. فتعجب وقال لها وماذا بعد ؟ فقالت له أنها لم تفكر في بعد هذه لأن هذه هي أقصى أمانيتها !!!!!!! قسمًا بالله لولا يعاب على هذا الكتاب لأكملت صفحاته كلها بعلامات التعجب ولرجوت الناشر ألا تقل الصفحات عن ألف ، إن هذا الواقع الذي عبرت عنه امرأة الأربعين هو بالتأكيد أقل وطأة من الذي يمكن أن تعبر عنه امرأة في الثلاثين ، فما بالناس بالواقع الذي يمكن أن تعبر عنه فتاة العشرين أو من دونها سنًا !! إن امرأة الأربعين لم تقل أن أمنيته مصافحة رئيس الدولة أو الدكتور زويل أو فاروق الباز أو أحد علماء الإسلام وإنما قالت أن أمنيته هي مصافحة مطرب أقسم بالله لولا ما نحن فيه من غيبوبة وبلاهة وسفاهة مازادت قيمته عن مجرد الطموح إلى أن يمنحه المجتمع حق البقاء !!!

إن هذا الواقع لن يلد لنا سوى مستقبل نحن منه أبرياء قبل أن يولد ، لذا فمن الواجب علينا إذن أن نجتهد في تغيير ملامح الواقع الظاهرة وصفاته الباطنة لكي نضمن

لمصر مستقبلاً كلما مر علينا يوم ازددنا شوقاً وتلهفناً إلى اللحظة التي سيولد فيها لنباهي به الدنيا كورثة شرعيين لأصدق وأنبأ من دعا إلى الحق والخير والجمال سيدنا ومولانا وهاديننا ومعلمنا ورحمة الله المهداة إلى جميع خلقه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولعلنا بداية يجب أن نحدد طبيعة الحضارة التي ننشدها لكي نحدد تبعاً لذلك المقومات التي يجب أن تتوافر في صناعاتها والقيم التي ينبغى أن تنال احترام المجتمع والقيم التي يجب أن تنال احتقاره وبحيث يتم ذلك في إطار خطة قومية طموحة وجادة يقوم على تنفيذها ومتابعتها رجال صادقون مع الله ومع أنفسهم ، رجال يعرفون أين صار الوطن وأين ينبغى أن يكون ، رجال يؤمنون بأن مقاعد السلطة هي منابر لخدām الشعب لا لأسياده ، رجال يرحبون بالمسئولية ولا يترفعون عن المساءلة ، رجال يرتبط بقاؤهم بالإنجازات التي يقدمونها للشعب لا للحكام.. على أرض الواقع الملموس لا من خلال الخطب والتصريحات والتقارير والإحصائيات الوهمية ، رجال يمنعهم حياؤهم من الله أن يستهينوا بآلام الشعب وأن يستخفوا بآماله متخذين من ساحة هذا الشعب وصبره على البلاء ذريعة إلى هذه الاستهانة وذاك الاستخفاف ، رجال يشعرون بعناءات أبسط المواطنين ، رجال يملكون الرؤى الوطنية الجادة والقادرة على مواجهة قضايا مصر والانتصار عليها بالإصرار الدائم والعزيمة الصلبة ، رجال قادرون على تجسيد أحلام العدالة في كل صورها ، رجال قادرون على تحقيق الوحدة الوطنية بمفهومها الشامل الذي لا يقتصر على حدود التسامح الديني فقط وإنما يتعداها إلى تجاوز كل صور التعصب والعنصرية الجغرافية التي تجعل سكان كل محافظة يتوهمون أنهم يمتلكون دون غيرهم أفضل الصفات وأن الآخرين لا يمتلكون سوى أقيح الصفات .

الإخوة الأحاب عشاق الوطن .. إننا ننشد صنع حضارة تمتلك مقومات القوة والبقاء ، فأما مقومات القوة فهي تتمثل في تحقيق تقدم علمي وتكنولوجي مطرد ومتواصل يدعمه نظام اقتصادي قادر على تحقيق أفضل استغلال لموارد الدولة وثرواتها، وأما مقومات البقاء فتتمثل في شيء واحد وهو العنصر البشري المزود بمنظومة قيم سليمة تؤهله لتأمين الحضارة وصيانتها من فيروسات ونفايات وفضلات الحضارات

الأخرى .

ولما كانت من المسلمات البديهية أن لكل صناعة خامات وأدوات ومراحل وصناع يميزونها عما سواها من الصناعات ، وحيث إن الحضارات على اختلاف أنواعها ماهى إلا صناعات بشرية ، وحيث إننا ننشد حضارة علمية أخلاقية ، فلا خيار أمامنا سوى أن نوفر لها الخامات والأدوات المناسبة والصناع المؤهلين لتصنيع هذه الحضارة عبر مراحل وخطط زمنية عاجلة وغير متعجلة وهو ما أراه يتمثل في حزمة من السياسات والرؤى أراها حتمية وأرى ألا يتم تأجيلها لأننى أخشى استنادًا إلى معطيات الواقع أن تزداد يومًا بعد آخر مناعتنا الحضارية ضعفًا فوق ضعفها وأن تزداد مقوماتنا العلمية والاقتصادية نزيفًا فوق نزيفها فنفقد ما تبقى فينا من إرادة فينفلت زمام الزمان من أيدينا وتنفرط أعوامه مسرعة بعيدًا عنا إلى حيث التاريخ وصناعه تاركة إيانا لننظر إلى نهايتها التى صنعناها بأيدينا وهى ترحف إلينا بجحافل اليأس والبؤس التى لا طاقة لنا بها .

إخوة الوطن .. إن أخشى ما أخشاه أن تطول غفوتنا وغفلتنا وخمولنا وجودنا حتى يأتينا الغد بغتة فنرى أطفال اليوم وقد صاروا شبابًا .. وشباب اليوم وقد صاروا رجالًا .. ورجال اليوم وقد صاروا شيوخًا .. وشيوخ اليوم وقد صاروا مجرد ذكري .. ترى ماهى ملامحنا فى هذا الزمان ؟ ترى ما هو موقعنا فى هذا الزمان ؟ إنه زمان ستمرد فيه الانجازات على الأقوياء المتنافسين ، أما نحن وأمثالنا فإن الأحلام — مجرد الأحلام — ستكون عبثًا ووهما لا لشيء سوى أن هذا الزمان وهو أقرب مما نتوقع سيقوى فيه المفسدون ويعم فيه الفساد إلى الدرجة التى يستحيل معها هزيمته بل ويستحيل معها مجرد التفكير فى مواجهته مالم نأخذ اليوم وليس غدًا بمجموعة من الختميات هى إضافة لما سبق تتمثل فيما يلى :

(١) استحداث سياسة تعليم جادة ورائدة وقادرة على تحقيق طموحات الأمة فى حضارة علمية أخلاقية تقوم على أسس راسخة وتسعى إلى أهداف محددة وتنتهج أساليب وإجراءات فعالة .

(٢) صياغة وإصدار دستور وطنى جديد يحمل فى إطاره المعالم الأساسية لنظام حكم ديمقراطى سليم ليس بالضرورة أن يكون استنساخاً من تجارب الآخرين خاصة وبين أيدينا كنز الشريعة الإسلامية المرصع بغوالى القيم والمبادئ الكفيلة بتجسيد كل معانى الحق والخير والجمال عبر السلطات والمؤسسات الدستورية المختلفة .

(٣) إيجاد حلول استراتيجية جذرية لقضايا الإسكان والسكان وما يتفرع عنهما من قضايا وتخليص الاقتصاد المصرى من كل العوائق التى تحول دون انطلاقه إلى دائرة المنافسة العالمية وتحقيق أفضل استغلال ممكن لثروات المجتمع وكفاءاته وموارده .

(٤) إقامة جسور من الصدق للتواصل مع أنفسنا ومع الآخر .

أما بعد .. فقد كانت هذه هى أهم الحتميات الواجب توافرها فى البيئة القادرة على إيجاد مجتمع مؤهل لصنع حضارة قوية وقادرة على البقاء ، وهى حتميات ينبغى أن توليها كل الأطراف ما تستحقه من اهتمام وعناية ، إذ أن هذه النوعية النادرة من الحضارات لا يمكن صناعتها مالم تتكامل أدوار كل السلطات الدستورية والقوى الشعبية بما فيها دور الأسرة والمجتمع فى أن يدرك كل راع مدى ضخامة المسؤولية التى سيتحملها فى الآخرة إذا ما قصر فى رعاية وتربية وتوجيه من يرعاهم وذلك مصداقاً لما ورد فى الأحاديث القدسية التالية :

الحديث الأول ويمكن توجيهه للمسؤولين والآباء والأزواج الذين تحولوا إلى مخلوقات باردة لا تغار على إهدار الأخلاق والأعراض .. « إن الله تعالى لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء ، وقال لسائر الأشياء كن فكان ، خلق الله القلم وآدم والفردوس بيده ، وقال لها : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فىك بخيل ، ولا يشم ريحك ديوث »

المعنى الذى أفهمه : أن الله اختص البخيل والديوث - الذى لا يغار على أهله - بالذكر فى هذا الحديث لتنبهنا إلى بشاعة هذين الجرمين باعتبار أن الكثير من الناس قد تخونهم عقولهم فى النظرة إلى البخل والدياثة ، إذ قد يرى البعض أن البخل هو مرادف للحرص وعدم التبذر وأن الدياثة هى دماثة خلق ومدنية وتحضر وأن الغيرة هى من

الصفات المذمومة كما يروق لبعض زاعمى العلم أن يصفوها ، كما أفهم من الحديث أن الديوث أبعد عن الجنة من البخيل ، إذ أنه من البعد إلى درجة أنه لن يشم رائحتها ، ومن المنطق أن رائحة الجنة هى فى ذاتها إحدى درجات النعيم .. والله أعلم

الحديث الثانى وأتوجه به إلى كبار السن المتصايين المستمرئين للمعصية بدلاً من التوبة إلى الله ورجاء مغفرته.. يقول الله تعالى : «وعزتى وجلالى وجودى وفاقة خلقى وارتفاعى وعز مكانى (إنى) لأستحيى من عبدى وأمتى يشيان فى الإسلام» ، ثم بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل يارسول الله ما يبكيك ؟ قال : أبكى ممن يستحيى الله منه ولا يستحيى من الله .

الحديث الثالث وأتوجه به إلى الآباء كى يجتهدوا فى حسن تربية أبنائهم بما يعود على الطرفين بالخير فى الدنيا والآخرة .. « إن الله تعالى ليرفع الدرجة العالية للعبد الصالح فى الجنة، فيقول : أتى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » ومن المعروف أن للرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً يؤكد على نفس المعنى ويقول فيه « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، علم نافع أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له » .

الحديث الرابع والأخير وأتوجه به إلى أفراد المجتمع كله كى يعودوا إلى الله ليجعل لهم من كل ضيق فرجاً ويسر عليهم مشاق الحياة بما فيها ظلم أهل السلطة والسلطان .. إن الله تعالى يقول : « أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملك والملوك ، قلوب الملوك فى يدى ، وإن العباد إذا أطاعونى حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة ، وإن العباد إذا عصونى حولت قلوبهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب ، ولا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر كى أكفيكم ملوككم » .

المعنى الذى أفهمه أن الشعوب إذا شاعت فيها المعصية بكل صورها استحققت نقمة الله ، وأن نقمة الله قد تأتى فى صور لا يحصيها إلا هو سبحانه وتعالى ، وأن من هذه الصور أن يسلط الله الحكام على شعوبهم فيظلموهم ويقهروهم و يغفلوا عن عنائهم وآلامهم حيث لا يشغلهم سوى ترسيخ بقائهم فى الحكم حتى وإن كان بغير رغبة الشعوب وهو

إذلال ما بعده إذلال ، إلا أن أهم ما لفت انتباهى فى هذا الحديث أن الله لم يحث الشعوب على مقاومة حكامها بالقوة كما يروج البعض ، بل إن الله يأمرنا بالأشغال أنفسنا بالدعاء عليهم إذ يكفيننا أن نعود إلى الله وهو حينها كفيل بإصلاح أحوالهم ، أى أننا لا يجب أن نتمسك بالباطل فى حياتنا العامة والخاصة فى ذات الحين الذى لا نكف فيه عن انتقاد المسئولين ، ونظرة واحدة على الكيفية التى تدار بها الصحافة المصرية المعارضة منها قبل القومية لتبين أن الكثيرين ممن يحملون أمانة الكلمة إنما يوهمون الشعوب بأنهم فرسان الحق والحرية والمساواة ، وهم أبعد الناس عن هذه القيم ، ويقتنى أن السلطات لو علمت فيهم خيرًا وصدقًا لخشيتهم ولحولت مسارها نحو الحق والحرية والمساواة ، ولكنها تعلمهم وهم يعلمونها وما هى إلا أدوار يتم أداؤها على مسرح جمهوره هو أنتم جميعًا ، فهل أنتم على حق أم أنكم كمن يقف فوق خشبة المسرح !!